
جرح من الذاكرة

رواية

د. مصطفى عبد الفتاح

الفارابي

جرح من الذاكرة

الدكتور مصطفى عبد الفتاح

جرح من الذاكرة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: جرح من الذاكرة
المؤلف: الدكتور مصطفى عبد الفتاح

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٥
ISBN:978-614-432-423-3

المحتويات

إهداء

إلى روح أخي وذكراه...

إلــى الــجــرح الــذي مــا زال ينزف في الذاكرة...

إلى كل ضحايا الظلم الاجتماعي والقهر على مساحة الوطن والإنسانية...

د. مصطفى عبد الفتاح

المقدِّمة

هو جرح يعشِّش في ذاكرتي، لا يهدأ نزفه المضيء أبداً، والمؤلم دائماً... كان قدري... فلم يكن لي مناصٌ منه ولا مفرّ... آلمني في صميمي، وأبكاني، وكسرني، وهدم لي بعض أحلامي، وسقاني المرَّ في سيرة حياتي، ولكنَّه أنار دربي، وأشعل ثورتي، وأوقد فكري، وأمطر صحراء آفاقي بمطر التَّصميم والصَّبر والأمـل، وأمدَّني بقوَّةٍ وطاقةٍ ما كنت لأمتلكهما لولا عمقه الملتهب...

أجل - إنَّه عمقه الملتهب، القاتل... إنَّه مقتل أخي في الحرب الأهليَّة اللبنَّانية اللَّعينة، الَّتي اندلعت نيرانها في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، فأحرقت من الحجر والبشر ما أحرقت، ولم يسلم من ذلك الحريق، إلَّا كلُّ ذي عمرٍ طويلْ.

إنَّه الجرحُ وإنَّها الذَّاكرة...

وإننا نولد مرة أخرى من جروحنا... هكذا أؤمن!! ومن ذاكرتنا نصقل أحلامنا، فنجعلها برَّاقة كالشَّمسِ، باعثة للنُّور وللحبِّ وللحياة.

د. مصطفى عبد الفتاح

طفولة في زمن الفقر

كان طفلاً جميلاً... بل كان مميَّز الجمال بين إخوته، وأبناء قريته، على ذمَّة القابلة التي ساعدت والدته على ولادته... كان ذهبيَّ الشَّعر، أبيض اللَّون، وأزرق العينين، في قرية يندر فيها هذا الشَّعر وهذا اللون للبشرة وللعيون!! عندما زفَّت القابلة الخبر للأب الَّذي كان ينتظر خارجاً، كعادة أهل القرى في ذلك الزَّمن، رفع نظره إلى السَّماء، ثمَّ رفع يديه قائلاً: الحمد لله... الحمد لك يا رب، أنت المحمود على هذه النِّعمة... وأطرق برهة... ونظر إلى القابلة وقال: لقد أسميته محموداً، وابتسم وأخرج من جيب سرواله القروي بعض النقود، وأعطاها للقابلة التي راحت تزغرد وهي تدخل إلى الأمِّ لتبشِّرها بفرحة الأب، وبالتَّسمية الميمونة... فرحت الأمُّ بالاسم وراحت تقبِّل وليدها وهي تردِّد اسمه بصوت خافتٍ منهكٍ من ألم المخاض: «محمود... محمود... محمود... حبيبي...».

كان ذلك في بداية الخمسينات من القرن العشرين، في بيت بدائيٍّ، حجريٍّ، ترابيٍّ، ينزوي على طرف القرية عند أبواب الحقول، كانت قرية منسيَّة على تعرُّجات التلال والوديان، حيث تكثر الينابيع والجداول، وتنتصب أشجار السنديان العتيق، والدِّلب المعمِّر والحور المناطح للسحاب، كأنَّها حرس قديم منذ الأزل، يحرس القرية وبيوتها الفقيرة التي كانت تترنَّح تحت المطر، الذي يخترق سقوفها «فتدلف»[1] ماءً متَّسخاً يبلِّل الأثاث الموجود، مما كان يستدعي أن يخرج أحدهم ليقوم بحدل السَّطح التَّرابيِّ بمحدلة حجريَّة، كانت من ضروريات ومستلزمات كل السطوح في تلك القرية وفي ذاك الزمن. كانت البيوت خاوية، لا تحتوي من مقوِّمات الحياة شيئاً إلَّا الحبَّ والأمل... جدرانها كانت من الطِّين، والإنارة كانت مصابيح تعمل بالزَّيتِ، والتَّدفئة كانتْ موقداً بدائياً في إحدى الزَّوايا، يبعث الدُّخان في كلِّ ناحية... تلك البيوت «الغرفة»[2]، كانت هي كلّ مكوِّنات ومقوِّمات البيوت، فهي لاستقبال الضيوف،

---

(١) تدلف: ترشح ماءً.

(٢) كان البيت عبارة عن غرفة واحدة.

وللجلوس وللنَّوم، وللطبخ وللمؤونة، وللاستحمام، ولكل شيء...

نعم، في بيت من تلك البيوت المتواضعة، النابضة بالحبِّ وبالأمل، وُلـد ذلك الطِّفل الجميل الأشقر، ذو العينين الزرقاوين، لأبوين فقيرين، ولأخوين هما: حامد، وماجد، ولأختين هما: حميدة وماجدة، أي أنَّه كان الخامس في عائلة تناضل من أجل الحصول على لقمة العيش في الزَّمن الصَّعب، وعلى ما تيسَّر من المال ليتمكَّن الأبناء من تحصيل ما أمكن من التعلُّم في مدارس تلك الأيام، التي كانت تشبه كل شيء فيها، أي أنَّها كانت هي أيضاً بدائية، ومدرِّسين بدائيِّين... لم تكن هناك مدرسة في كل قرية، بل كان على الأطفال أن يسيروا على أقدامهم الصغيرة شبه الحافية يومياً إلى إحدى القرى الكبيرة التي كانت توجد فيها مدرسة وحيدة بين العديد من القرى، وليعودوا مساءً أيضاً سيراً على الأقدام، مسافاتٍ طويلة بين الحقول، والبساتين، عرضة للخوف والبرد والتعب.

نما الطفل الجميل محمود بين إخوته، كان يلبس من ثيابهم القديمة، وينتعل من بقايا أحذيتهم، ويلعب مع أختيه حميدة وماجدة في الدار، بين الأزهار، وقرب جدول ماء...

المدرسة

ولمَّا بلغ محمود السابعة من عمره، أخذه أبو حامد مع إخوته في بداية العام الدراسي، وقام بتسجيله في صفِّه الأول، حيث كان على محمود أن يستعمل كتب إخوته القديمة، وكان على الأب فقط أن يشتري له قلم رصاص، ومبراة، وممحاة، وثلاثة دفاتر: أوَّلها للُّغة العربيَّة، وثانيها للُّغة الفرنسيَّة، وثالثها للحساب، وكان على أم حامد أن تخيط له محفظة من بعض ما تيسَّر من بقايا ثياب قديمة لتكون صالحة لتحمل له كتيِّباته ودفاتره المعهودة... كان يذهب مع إخوته في كلِّ صباحٍ وكل واحدٍ يحمل تحت إبطه محفظته وفي اليد الثانية زوَّادة الغداء، فلقد كان الدَّوام في المدرسة يمتد حتى المساء...

كانت المدارس في مناطقنا أمراً مستجدَّاً، لم يكن معروفاً من قبل إلَّا في بعض أشكال التعليم المحصور عند بعض رجال الدين...

فلم تعرف مناطقنا التَّعليم على مدى مئات الأعوام من الحكم العثمانيِّ الَّذي أغرق البلاد والعباد في ظلام ليلٍ دامسٍ من التَّجهيل المتعمَّد والمقصود، وذلك بقصد إضعاف عنصر الانتماء القومي العربي، مقابل تقوية العنصر التركي المتسلِّط بحدِّ السَّيف على رقاب النَّاس، وعلى مقدِّرات البلاد.

فطوال الحكم العثماني لم تعرف مناطقنا حالة من التَّعليم الرسميِّ الصحيح، إلَّا وهذا استثناء في عهد السُّلطان عبد الحميد قامت السَّلطنة ببناء مدرسة وحيدة في عكار وشمال سوريَّة ولبنان، تدعى المدرسة الحميديَّة في قرية مشحا العكاريَّة وما زالت آثارها قائمة حتى يومنا هذا.

لذلك فإن المدارس المستجدة بعد الاستقلال كانت بدائية جداً، فلم يكن لها ملاعب، ولم تكن فيها مقومات صحيحة للتعليم، حتى أن المدرِّسين كانوا غير مؤهلين، وذلك بسبب الضرورة فالحاجة كانت تستدعي توظيف من يعرفون أصول القراءة والكتابة ومن يحوزون أدنى الشهادات، كمدرّسين في القرى، وكان هؤلاء يناضلون ويمهرون في وظيفتهم، ويعملون كما لم يعمل أحد من قبلهم، فلقد كانوا يؤسِّسون كلَّ شيء من اللاَّشيء...

لم تكن هناك ملاعب للأطفال... ولم تكن هنالك وسائل ترفيه... فالحياة كانت شبه مقفلة في وجوههم، لولا أن الطبيعة الجميلة كانت تفتح صدر حقولها وبساتينها المزينة بالأزهار لهم ولطاقاتهم وللعبهم وللهوهم الجميل...

عالم الأطفال كان محصوراً في القرية وأزقّتها، ومداركهم كانت أحاديث الأهل حول العائلية والعائلات الكبيرة التي تملك الأراضي وتملك القرار الاجتماعي، ورجال الدين وما يملكون من القرار الديني.

كان الأبناء يتباهون بما يسمعون من آبائهم عن عائلاتهم إذا كانت عائلات كبيرة أو إقطاعية... ويتباهون بقوّة آبائهم وبما يقومون به من عمل، إذا كانوا من عائلات فقيرة لا تملك، بل تعمل عند من يملك...

هكذا كانت الحال.... ولا يوجد في الأمر شيء غريب أو جديد، ما عدا أنَّ الطفل محمود كان ينتمي إلى عائلة مختلفة تماماً، فلقد كانت عائلة صغيرة جداً، والسبب في ذلك أنَّ كلَّ أفراد العائلة من جهة الأب كانوا قد هاجروا في مطلع القرن العشرين إلى العالم الجديد، هرباً من واقع الحياة الصَّعب والمرِّ، في ظلِّ الحكم العثمانيِّ الَّذي لم يقدِّم طوال حكمه

الَّذي استمرَّ ما يزيد على خمسمائة عام، إلَّا التَّجهيل المبرمج، والتَّفقير الممنهج، للأقطار العربية التي كانت رازحة تحت حكمه، وجبروت سلطته، وجحيم «سفربرلك»[1] الَّذي كان نهاية لتلك المرحلة الظالمة المظلمة من تاريخ منطقتنا، والذي كان عبارة عن تجنيد إجباري عبثي لكلِّ رجل في ظلِّ السَّلطنة العثمانية لقتالٍ كان الموت فيه أكيداً والهزيمة منتظرة... لذلك كانت الهجرة إلى العالم الجديد، هي المجال الأفضل، والأسلوب الأمثل للهروب من ذلك الواقع الصَّعب... إلَّا أن تلك الهجرة خلَّفت وراءها خللاً ديموغرافياً كبيراً، فلقد حرمت الوطن من خيرة الشباب، وتركت عائلات كثيرة بلا رجال، وهذا ما كان قد حلَّ بعائلة محمود، فلم يبق في الوطن من العائلة إلَّا والده، والسبب في ذلك أنه كان طفلاً صغيراً غير قادر على السفر، ولا ينطبق عليه قانون «سفربرلك» الظالم، فتربى على يديِّ أمِّه حتى كبر وصار رجـلًا، وكان شاهداً على هزيمة العثمانيين وخروجهم من بلادنا، وكان شاهداً أيضاً على

---

(١) سفربرلك: أو ما كان يسمى به الأخذ عسكر، وهو سوق الشباب إجبارياً إلى معسكرات الجيش العثماني.

الانتداب الفرنسي وما فعلوه في بلادنا، وكان شاهداً على الاستقلال الذي لم يكن استقلالاً، بل كان صفقة لم تزل سارية المفعول حتى أيامنا هذه. أجل كان محمود ينتمي إلى عائلة صغيرة في زمنٍ كان الناس يتباهون فيه بحجوم عائلاتهم وبملكيّاتهم، وبأصولهم، وبأحسابهم وبأنسابهم...

أمّا محمود، فلقد كان يسمع من أبيه حديثاً مختلفاً تماماً عن تلك الخرافات والقيم الرثّة، والتُّرّهات التي لا معنى لها ولا فائدة منها... فلقد كان يحدث أبناءه عن القيم الحقيقية للإنسان وللحياة، فكان يحضُّهم على حُسْنِ الأخلاقِ والسيرةِ الحميدة، والصِّدق والمحبة، وكسب القوت بعرق الجبين، فالعمل كان في رأيه هو السَّبيل الأوحد للإنتاج، والتَّعلُّم هو الطريق الأفضل لتطوير الحياة... كان أبو حامد يعرف أصوله جيداً، ولكنه لم يكن يتباهى بها، فأهدافه السامية في الحياة كانت تطغى على تفكيره، فأراد أن ينقلها منهج حياة وطريقة تفكير إلى أبنائه... هكذا تعلَّم الأب من ظروف حياته الصَّعبة القاهرة، أن يكون، وأن تكون أخلاقه، وأن تكون أحلامه، وأن تكون تطلُّعاته... وكان يرى في آرائه الصواب والحقيقة... فالعمل والجِدُّ والتَّعلُّم

من أجل الحياة الحرَّة الكريمة هو المبدأ، وعدم الاستسلام للفقر والجهل والظُّلم هو الوسيلة.

أراد ذلك الأب المناضل، الصَّابر على مرِّ الحياة، والمتطلِّع دائماً نحو غدٍ أفضل، أن يجعل من أبنائه فرساناً لذلك الغد المشرق... أراد أن يعلِّمهم الصَّبر والجَلَدَ وتحديد الأهداف وحُسْنَ الأخلاق وعزَّة النَّفس وشموخ الرجال.

كان ذلك صعباً، بل قاسياً عليه وعلى أبنائه في مجتمع لم يكن يدرك ماهيَّة تلك القيمْ.

كان قاسياً عليه لصعوبة الأيام ولشدة الفقر، الَّذي كان يخيِّم على ذلك البيت الفقير، الذي كان يشبه قفراً، في باطنه كنز عظيم. وكان قاسياً على أبنائه، لأنهم صغار، ولهم أحلامهم وعالمهم، وفي القرية من حولهم عالم من نوع آخر يسوده التَّباهي والتفاخر بالعائلات والأملاك، وما كانت تعنيه تلك الأمور من مصادر للقوَّة... وللأسف ما زالت حتى هذا الزمن في بلادنا أمراً يحسب له ألف حساب.

نعم، ذهب محمود إلى المدرسة، فأظهر كل نباهة وقدرة على التَّعلُّم، ولفت نظر مدرِّسيه لجماله، ولحُسنِ تربيته، ولنظافته، ولذكائه. كان سريع الفهم، سريع التجاوب، جيِّد

الأداء، جميل المظهر، مرتَّب الدَّفاتر، يحسن النطق، ويسهل الحفظ عليه. فراح يتجاوز الصفوف بنجاح، متميِّزاً بين رفاق صفِّه باستمرار ممَّا كان يثير حفيظتهم ضدَّه، ولكنَّه لم يكترث لأمرهم يوماً، فاستمر على ما هو عليه متميِّزاً حتَّى بلغ الحادية عشرة من عمره، حيث كان عليه أن يتجاوز امتحاناً رسمياً، كان بمثابة الامتحان الفاصل بين التعليم الابتدائي والتعليم الإعدادي، أو ما كان يُعرف حينها بالتَّعليم التكميلي، وكان الَّذي يتجاوز ذلك الامتحان الرَّسميَّ يحصل على شهادته الأولى الرَّسميَّة من وزارة التَّربية الوطنية، والتي كان يُطلق عليها اسم «شهادة الدُّروس الابتدائية»، وعند العامَّة كانت تسمَّى «بالسيرتيفيكا».

تقدم محمود مع رفاق صفِّه إلى ذلك الامتحان الرسمي الَّذي أجرته وزارة التَّربية الوطنيَّة في مراكز محدَّدة في المدن الرئيسيَّة في البلاد، حيث كان يذهب ولعدة أيام في كل صباحٍ مع رفاق صفه وبواسطة حافلة كبيرة إلى المدينة، وليعود مساءً ويحدِّث الأهل عن مجريات الامتحان، وعن طريقة إجاباته التي تبيَّن في حينه أنَّها كانت جيِّدة وأنَّها كانت تبشِّر بنتائج مميَّزة أيضاً...

انتهى الامتحان الرسمي، ودخل التلاميذ في مرحلة الانتظار الصَّعب أيَّاماً طويلة، كان يحسبها التِّلميذ دهراً... وبعد عناءٍ وصبرٍ وطول انتظار، نشرت وزارة التربية الوطنية النَّتائج الرَّسمية للامتحانات في الصُّحف، فتهافت التَّلاميذ بحثاً عن أسمائهم على الصَّفحات المخصَّصة لذلك، فكان الَّذي يجد اسمه يطير من الفرح ويهرع إلى أهله مبشِّراً بالنَّجاح، والَّذي لا يجد اسمه يُصاب بالخزي والحزن... وهكذا كانت المفاجأة السَّيِّئة لمحمود، بل كانت الصَّدمة الأولى في حياته واليوم الأصعب، فلم يكن اسمه مدرجاً بين النَّاجحين... حزن حزناً شديداً، وبكى بكاءً مرَّاً، وعم جوّ من الشعور بالحيف والخزي البيت ومن فيه، إلَّا أبا حامد، فكان يربِّت كتفيّ ابنه ويقول له، لا تحزن يا بني، إنَّ في الأمر لغزاً.. إنَّ في الأمر لغزاً...

استغرب مدرِّسو محمود الأمر أيضاً، وهم الذين يعرفونه ويعرفون مدى ذكائه وفطنته، وهم الذين كانوا يراهنون على أدائه من بين رفاق الصف، متوقعين له التَّميُّز... ولكن لم تكن باليد حيلة!!! فلقد حدث ما حدث، والنتائج النهائية هي هي، ولا مجال لتبديلها، ولا لتغييرها، ولا مجال لإعادة الامتحان... فالأمر قد حدث، وما كان على محمود إلَّا أن يتقبَّل الأمر وأن

يعيد عامه الدِّراسي مكرهاً، أو بلغةٍ أخرى، كان عليه أن يجد نفسه مصنَّفاً بين الرَّاسبين، وهو لا يدري لماذا؟؟ كان واثقاً في قرارة نفسه بما قاله له أبوه: إنَّ في الأمر لغزاً، وإنَّه ليس راسباً، لأنَّه كان يعلم جيِّداً أنّه أبلى بلاءً حسناً في الامتحان كلِّه.. ولكن كلَّ ذلك لم يكن ينفع ولا يقدم شيئاً سوى الكثير من الألم... لذلك بدأ مع بداية العام الدراسي التَّالي بالذَّهاب إلى المدرسة كراسب ليعيد عامه الدِّراسي مع رفاق صفٍّ مستجدِّين أصغر منه سنّاً... تعاطى معه المدرّسون بتعاطف لا بأس به خفَّف عنه كثيراً من الشُّعور بالقهر والظُّلم اللَّذين كانا يعتصران قلبه الفتيَّ، ولكنه لم يلغ ذلك، فكان كلَّما ازداد شعوره ذلك، ذهب إلى الحقول بين الأشجار ليبكي هناك مع الرِّيح، مع العصافير والفراشات وأوراق الخريف الصَّفراء...

بدأت تنمو في قلبه وفكره وذهنه جذوة الغضب على الظُّلم، لكنَّه كان طفلاً غير قادر على التَّعبير عن غضبه إلَّا بالهروب إلى حضن الطبيعة الهادىء الدافئ، الرحب، والخصب، والمزركش بالأحلام والأمل...

لم يطل الوقت، ولم تطل المعاناة الصعبة، بل جاءت وكانت المفاجأة الجميلة العظيمة التي تردَّدت أصداؤها في

القرية كما في القرى المجاورة لسنوات طويلة... كان صباح يوم الإثنين، حين وقف التلاميذ في الصف، بعدما قرع الناظر الجرس، ليخرج المدير كالعادة ويأمر الصِّغار بالدخول بانتظام وهدوءٍ إلى غرف الدروس، ولكنه في ذلك اليوم وقبل أن يأمر التلاميذ بالدخول، نادى بصوته الجهوريِّ، «محمود» فخاف محمود وارتعب وتلعثم، وهو يجيب: حاضر حضرة المدير... فأردف المدير قائلاً: تعالى با بني، فتقدم محمود بخطى الطِّفل الخائف نحو ذلك المدير الَّذي كانت له هيبة ليس مثْلها هيبة، حيث وقف أمامه وأطرق وطأطأ رأسه قائلاً: نعم سيِّدي، فقال المدير أيضاً بصوت جهوري: يا بنيَّ لقد استلمت بريداً من وزارة التربية الوطنية يفيد بأنك من الناجحين في امتحان الدروس الابتدائية، ووصلت شهادتك الرَّسمية إلى المدرسة يا بنيَّ، تعالى معي واستلم شهادتك، واذهب إلى أهلك وبشِّرهم بالأمر... لقد كنا واثقين بك يا محمود... إذهب فأنت تلميذ جيِّد...

صفَّق له رفاقه الواقفون ينتظرون إشارة المدير للدخول إلى غرف الدروس، وتسابقوا إليه ليهنئونه وليباركوا له، فمنهم من عانقه، ومنهم من ربَّت كتفيه، ومنهم من لوَّح له باليدين،

وكانت لحظة عارمة بالفرح والسرور، أنسته كلَّ حزنه وجعلته يطير من فرحه، فذهب بعد أن استلم شهادته، يعدو كغزال غير آبه للمسافة بين المدرسة وقريته ليزف البشارة إلى أمِّه وأبيه وأخواته...

حين رأته أمُّه عائداً من المدسة خافت ولكنها استغربت الأمر لأنه كان سعيداً والبسمة تعلو وجهه، فنادت أباه، أبو حامد... أبو حامد... تعال انظر، إن محموداً عائد من المدرسة والفرحة تملأ عينيه، تعال وانظر،... خرج أبو حامد، ونظر إلى وجه ابنه السعيد فقال لا تقل شيئاً يا بني: لقد أخبروك بأنَّك من الناجحين أليس كذلك؟؟؟ فأجاب محمود: نعم نعم يا أبي... فعانقه أبواه عناق السعداء وعاد أبوه ليقول له: ألم أقل لك: إنَّ في الأمر لغزاً... أجل فلقد سقط اسمه من النشر في الصحف سهواً...

انتشر الخبر في القرية، فغص البيت المتواضع بالمهنئين الذين توافدوا أيضاً من القرى المجاورة، وذلك لعدة أيام، كانت عيداً فعليّاً عاشه محمود، وأهله وأهل قريته...

بعد ذلك الفرح، كان على محمود أن يتجاوز تحدّياً آخراً، فالعام الدراسي كان قد بدأ منذ حوالى شهرين، وكان بحكم

نجاحه عليه أن ينتقل إلى مرحلة جديدة من التعلم، هي المرحلة الإعدادية أو التكميلية، وكانت في تلك الآونة من الزمن مرحلة صعبة، بكل المواد التي كان على التلميذ أن يتعلَّمها، إذ كان عليه أن يتعلَّم كل مواد العلوم والرياضيات باللغة الفرنسية، بالإضافة إلى المواد الأخرى المعتادة...

كانت المدرسة الإعدادية أبعد بكثير... فلقد اصطحبه أبوه، أبو حامد بعد أسبوع وذهبا إلى المدرسة التي كان يتعلم فيها أخواه الكبيران حامد وماجد، واللذان كانا هما أيضاً من المميزين... استقبله المدير استقبالاً جيداً قائلاً له: إن كنت قد أتيتني بثالثٍ كالإثنين فأهلاً وسهلاً بك وبه...

فأجابه أبو حامد جواباً لم يكن يتوقعه البتة، كان ينمُّ عن خلفيَّة ثقافيَّة جميلة وإدراك لما وراء الكلمات... قال أبو حامد: لقد جئتك «بيوسف»[1] يا حضرة المدير... لم ينتبه أولاً المدير للإجابة الغريبة، فأخذ الأوراق الثبوتيَّة من الأب، وقرأها، فوجد أنَّ الإسم محمود، فسأل أبا حامد قائلاً: ماذا قصدت يا أبا حامد بجوابك أنك أتيتني بيوسف؟ إنِّي أجد أنَّ اسمه محمود!! ثمَّ

---

(١) يوسف: نبي الله يوسف المعروف بجماله السَّاحر.

نظر إلى محمود واستدرك ما قصده الأب ثمَّ أردف قائلاً: معك كلُّ الحق يا أبا حامد إنه يوسف بجماله... حفظه الله لك ورعاه أهلاً به في مدرستنا... ولكنْ عليه أن يبذل جهداً ليعوِّض ما فاته من دروس، وسنساعده في ذلك...

انصرف أبو حامد من المدرسة، وبقي محمود هناك مع أخويه الكبيرين اللذين كانا في صفين أعلى، ليبدأ حياة جديدة، ومرحلة جديدة، وزهواً جديداً في ذاك الزمن... استطاع محمود بذكائه وفطنته وحسن تربيته ومساعدة مدرِّسيه أن يتجاوز ما فاته وأن يعوِّض النَّقص الحاصل له جرَّاء التَّأخير، وانطلق بين رفاق صفِّه وكأنَّ شيئاً لم يحدث، متميِّزاً كعادته، وكان يشعر بالفخر دائماً، وكان أهله أيضاً يشعرون بذلك، وأكثر منهم جميعاً كان مدرِّسوه يشعرون بالعاطفة والحب تجاهه، بالإضافة إلى الفخر به، وباستمرار صفَّاً بعد صفٍّ، وسنة بعد سنةٍ وهو يتدرَّج في المرحلة الإعدادية، وينمو لتبدو على وجهه أولى علامات البلوغ، فراح يهتم بمظهره الخارجيِّ بنفسه، ولم يعد يستعين بأمِّه، ويبدو أنه في تلك السنوات كان يعيش أولى قصص الحب الطفولية. ولكن الأمر بقي سرَّاً في قلبه ولم يستطع أحدٌ أن

يعرف شيئاً عن ذلك لا من رفاقه ولا من إخوته ولا من مدرِّسيه...

ولكنَّ شيئاً آخر لم يكن بالإمكان إخفاؤه قد حصل لشخصية محمود في تلك المرحلة، وهو ازدياد وتوسع أفق معارفه وأصدقائه، ففي تلك المدرسة الإعدادية، كان عدد التلاميذ أكبر، وأطيافهم الاجتماعية أوسع، وانتماءاتهم السياسية والدينية مختلفة، مما شكل بالنسبة إليه رافداً ثقافياً مهمَّاً إضافيّاً للتربيَّة المنزليَّة المتميَّزة - الَّتي ترباها على يديّ والديه المنفتحين على الدُّنيا بطريقة مختلفة عن كل أهل قريته...

في تلك المرحلة وبينما كان محمود يجتاز صفوف المرحلة الإعداديَّة، كانت الظُّروف الماديَّة للعائلة تزداد سوءًا وكانت الأعباء الماديَّة تكبر يوماً بعد يومٍ لتثقل كاهل أبي حامدٍ، وتجعله عاجزاً عن الاستمرار في أداء واجباته كأب مثاليٍّ في تعليم بنيه ورعايتهم...

ولكن أبواباً للأمل كانت تنفتح لتبدِّد ظلمة الفقر والحاجة وقسوة الأيام، مطلَّة ببريقها من إمارات الخليج العربيِّ النَّاشئة الَّتي كانت في بدايات نهضتها التي اعتمدت أساساً وما زالت

حتَّى الآن على استخراج النَّفط، وما يدره النَّفط من أموالٍ، وما ينعكس ذلك من حركة اقتصادية مهمَّة، استدعت أيدياً عاملةً ضرورية، فعمَّ الخير المستخرج مع النفط كلَّ البلدان العربية، ليصل إلى كل المدن والقرى والبيوت. من أهم الإمارات التي اجتذبت الأيدي العاملة في نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات كانت إمارة الكويت، التي سافر إليها عدد من شباب القرية والقرى المجاورة، وبدأت أخبارهم السَّارة تصل تباعاً إلى ذويهم، مع ما كانوا يرسلون إليهم من أموال، خلقت حركة جديدة في القرى، وحياة جديدة، تمثّلت بالنشاط العمراني الإسمنتي المستجد، حيث بدأت القرى تغيِّر أشكالها وألوانها، وعاداتها، ومصالحها، ومهنها وتجاراتها... مما أثار همَّة الأخ الكبير لمحمود وهو الشاب الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، والمهذب، والَّذي آثر أن يترك صفوف الدراسة ليلتحق بالحلم الخليجي فيساعد أباه، ويخفِّف عنه وطأة معاناته المالية فتشاور معه (أي مع والده) الذي لم يكن عنده حلٌّ، إلَّا أن يقبل الفكرة التي كانت براقة في ظاهرها، وحرَّاقة في جوهرها لقلب أبوين انتظرا طويلاً، وهما يربيان طفلاً، حتَّى أصبح شاباً، وبدلاً من أن يدخل معترك الحياة من باب المدرسة والعلم الذي أراده

له والده، ها هو يدخله من باب الهجرة والسفر والبعد عن قلب الأم، وصدر الأب، وكلٌّ ذلك من أجل مساعدة أب لم يعد يستطيع أن يكمل الطريق، الذي أراده لأبنائه تحت وطأة، الحياة وصعوبة الأيام، ومرارة الزمن...

بكت الأم، وانفطر قلب الأب، ولكن حامداً سافر إلى الكويت من أجل أن يستمر ماجد ومحمود في مسيرة التحصيل المدرسي... فغادر المدرسة والقرية والعائلة والوطن، ليسافر برَّاً إلى بلادٍ مجهولة بالنِّسبة إليه بحثاً عن الحلم والأمل بالحياة الفضلى... انتظر الجميع أخبار الإبن البكر حامد، وأخبار عمله، ومداخيله التي كان يظنُّها الناس في القرية سهلة وميسَّرة... كل شيء كان في ظاهره اعتياديّاً... ماجد ومحمود يذهبان في كل صباح إلى المدرسة... محمود في الإعدادية، وماجد في الثانوية... ومرت الشهور والكلُّ ينتظر... لم تكن حينها وسائل الاتصال التي نعرفها اليوم.. ووسيلة الاتصال والتواصل الوحيدة كانت الرسالة المكتوبة، والمرسلة بواسطة البريد، والتي كانت تستغرق وقتاً طويلاً لتصل، حيث كان ساعي البريد يجوب القرى على ظهر حصانه، تبعاً لبرنامج ثابت، فكان كالملاك الآتي ببشائر الخير في جعبته..

فما إن يصل إلى القرية حتَّى يعمَّ خبر وصوله جميع البيوت بسرعة البرق، فتسرع النسوة إلى الطرقات يلاقينه، بانتظار أخبار أبنائهن في المهجر بلوعة الشَّوق وحرقة الأكباد... فتفرح تلك التي يناديها «البوسطجي»[1]، ليسلِّمها رسالة من ابنها أو من زوجها، فتزغرد، وتعطيه البشارة، وتهرع باحثة عن قارىء يقرأ لها ما ورد في تلك الرسالة، وتدور بعدها في القرية لتسمعها مرات ومرات من أكثر من قارىء، لتتحقق من كلِّ كلمة ولتروي ظمأها وشوقها، ومن ثمَّ تحفظ الرِّسالة مع سابقاتها، في مكان آمن في خزانتها كأنها كنز في الحياة. كان البوسطجي يزور القرية، ولا يدري أبداً أن أبا حامد ينتظر رسالة من إبنه في الخليج... وأبو حامد ذو الشخصية القوية لا يسأل، بل يبقى جالساً على كرسيِّه الخشبي تحت شجرة التوت أمام منزله وكأن شيئاً لا يحدث... وأم حامد سيِّدة مختلفة ترى أنه لا يليق بها أن تهرع إلى الطريق لتسأل وتزغرد كبقية النسوة، ولو أن قلبها كان يكاد يفعل...

وفي أحد الأيام وبينما كان يشرب قهوته المعتادة تحت

(١) البوسطجي: ساعي البريد.

شجرة التوت، حزين القلب، يحترق شوقاً، وتخنقه الأحاسيس والتَّساؤلات عن ابنه وعن حاله، مرسلاً نظرات إلى الأفق البعيد، لعلَّها تصل إلى الكويت، لتبحث عن ابنه وتطمئنَّ إليه، وإذا «بالبوسطجي» يظهر من بعيد على ظهر حصانه، فقام أبو حامدٍ وهمَّ بدخول البيت هرباً من خيبة الأمل المعتادة، ولكن صوت البوسطجي بدَّد السُّكون: ها.. ها.. يا عم أبو حامد.. إلى أين أنت ذاهب؟ ألا تريد أن تعطيني البشارة؟؟ ابنك في الكويت ولا أدري؟؟ انتظر انتظر...

ابتسم قلب أبي حامد، وضحكت أساريره، ولكنه حافظ على مظهره الخارجي متماسكاً، وعاد متِّجهاً إلى شجرة التوت وحمل كرسيَّاً خشبياً آخر، وفنجان قهوة آخر. ورحَّب بالبوسطجي، وهو يتمتم بحمد الله. شرب القهوة مع البوسطجي واستلم الرسالة وأعطاه البشارة كما كانت العادة في القرى، ودخل إلى أم حامد التي كانت تسمع الحديث فوجدها تبكي فرحاً وتصلِّي فرحاً، فجلس قربها ليقرأ الرسالة، ولما فتح المغلف وجد داخله «خمسين ليرة»، وكان ذلك مبلغاً جيداً جداً نزل على العائلة برداً وسلاماً، زيادة على ما ورد في الرسالة من

أخبار جيدة عن صحة حامد وعن عمله، وعن حبه لأهله وعن التزامه بتوصيات أبيه وأخلاقيات ما تربَّى عليه...

عمت الفرحة كل وجوه العائلة وارتسم أمل جديد فوق جبين أبي حامد الذي نظر إلى زوجته وقال: الحمد لله أصبح البيت بأمان.. وصار بالإمكان تعليم الأولاد طالما هناك مدارس وصفوف تعليمية...

بعد أشهر قليلة استطاع ماجد أن يتقدَّم للشهادة الثانويَّة وأن ينجح، وكان هو التلميذ الأول في تلك القرية النائية الذي يحصل على تلك الشهادة، فاعتبر أبو حامد نفسه بطلاً، وأنه بأبنائه يحقق أشياء لا يحققها أصحاب الملكيات ولا أبناء العائلات الكبيرة. واعتبر ماجد نفسه أيضاً مميزاً وكان يحق له، لأنَّه كان الأول والوحيد في القرية الذي يحمل تلك الشَّهادة، والتي بسببها استطاع أن يتبوَّأ وظيفة في وزارة التربية الوطنية كمدرِّس رسمي، يتقاضى راتباً شهرياً مقداره مئة وخمسون ليرة آنـذاك... فكان الأمر حديث الناس وتهامس الصبايا، وفرح البيت، وتوافد المهنئين من كل حدب وصوب، وكبرياء الأب، وخفقة قلب الأم، وإحساس الأُخوة، وكل النشّوة في زمن، وفي مجتمع، وفي ظرف كان أقسى من التَّخيُّل، وأصعب من

التَّحمُّل، وأشدَّ من التَّسوُّل، كان زمن الجهل والفقر والقحط وبعض الأمل بالحياة... وها هو الأمل بدأ يتحقق، وبدأ الفجر يتشقَّق، والنُّور ينبلج... فالإبن البكر في الخليج يعمل جيداً، والثاني يحمل شهادة كبيرة في ذاك الزمن وموظف، والثالث على الخطى يسير...

مضت الأيام ومحمود يمثل الحلم القادم... فلقد كان يتجاوز الصفوف بنجاح وتميز... كل الثناءات من مدير الإعدادية ومن المدرّسين كانت تتدفق عليه، كان أبو حامد فخوراً به جداً... كلمح البصر كان عليه أن يتقدّم للامتحان الرسمي للشهادة الإعدادية، ففعل، وانتظر النتيجة التي لم يطل انتظارها، بل جاءت بدون مفاجاءات كالأولى حيث سقط اسمه سهواً. بالعكس، كان اسمه مكتوباً بوضوح... نجح محمود وتجاوز المرحلة الإعدادية بنجاح مضيفاً فرحاً جديداً، وحلماً جديداً، وآفاقاً جديدة للعائلة كلّها... مضت الأيام، وأحوال العائلة الفقيرة تزدهر، وكل شيء كان يبدو أنه سيصير جميلاً... كان أبو حامد يجلس في كل يوم تحت شجرة التوت ينتظر أم حامد وهي تأتي بالقهوة، بعد صلاة الفجر، ليتحدثا عن العائلة، وعن الأولاد وعن أحلامهما الجميلة... من سيتزوج أولاً، أو

من ستتزوج أولاً... ومن ستكون «الكنَّة»[1]، ومن سيكون الصِّهر، ويستطردان في الحديث، على موسيقى العصافير الصغيرة التي كانت تغزو شجرة التوت لتأكل من ثمارها، ولتشارك الأبوين السعيدين في نسج أحلامهما الجميلة... ليستمر ذلك الحلم إلى أن تشرق الشمس وتبدأ حركة الفلاحين والمزارعين ورعاة الأبقار، تعود أم حامدٍ إلى داخل البيت لإعداد الطعام للترويقة، ولإيقاظ الأطفال، بينما يبقى أبو حامد تحت شجرة التوت، يحيى هذا، ويحدِّث ذاك، ويدعو ذلك إلى القهوة، ويستبقي الآخر إلى طعام الفطور، وكأنَّ في قلبه فرحاً وفي نفسه وروحه سعادة أراد أن يستخرجها ليظهرها على العالم كله ليقول: أنا سعيد بعائلتي يا ناس، أنا سعيد بعائلتي يا ناس...

(١) «الكنَّة»: زوجة الإبن.

المرحلة الثانوية والتيار الكهربائي

مضت أيَّام الصَّيف الجميلة، وابتدأ العام الدِّراسيُّ الجديد، وكان على التَّلامذة أن يلملموا كتبهم ودفاترهم، وأن يقصدوا أبواب مدارسهم، بعد أشهر العطلة الصيفيَّة الطويلة، ليلتقوا أصدقاءهم ومعلِّميهم، وليعاودوا رحلة الدِّراسة الجميلة الشاقَّة في آنٍ واحد، عسى أن يكونوا رجالاً للمستقبل الآتي المرتسم في أعين الأهل أحلاماً وآمالاً، تمثل ثمرة الحياة المضنية....

كان على محمود أن يبدأ مرحلته الثانويَّة في عامها الأوَّل، الذي كان في تلك الأيام يتمثل ببرامج أوسع وأصعب، وبمدرِّسين أكثر تخصُّصاً وأعمق مهنيَّة، وبزملاء دراسة أشمل وأكثر معرفة وأوسع أطيافاً واهتمامات، فكان ذلك تحدِّياً جديداً ليس بالنسبة إليه فقط، وإنَّما بالنَّسبة إلى كل من كان يرتاد الثَّانويات في ذاك الزمن الغابر...

لم يساور أبا حامدٍ خوف من ذلك ولا ارتياب، فلقد تعوَّد

أن يرى ابنه محموداً، ومن قبله إخوته مميَّزين دائماً، ولا تعيقهم العوائق المدرسيَّة، فلقد كان يرى في نفسه الأب المثاليَّ الَّذي أحسن تربية أبنائه ونجح في ذلك... بدأ العام الدراسي، وانطلق محمود كعادته لافتاً النَّظر إلى حسن سيرته، وسرعة فطنته، وأخلاقه، وتهذيبه، ناسجاً أحسن العلاقات مع زملائه التلاميذ المستجدين في الثانويَّة، وكان كل شيء كما يتوقَّعه الجميع...

وفي صبيحة أحد الأيَّام التِّشرينيَّة، استفاقت القرية على ضجيج عمَّال ومعاول كثيرة في كل الطُّرقات والأزقَّة، كانوا عمَّالاً غرباء، لا يعرفهم أحد، أشكالهم ووجوههم غريبة، كانوا يحفرون حفراً على جانب الطريق بمعاولهم اليدويَّة ورفوشهم، وآخرون كانوا يستقدمون حملاً على أكتافهم، أعمدة طويلة خشبية وأخرى حديدية ويلقونها هنا وهناك... انتشر الخبر وانتشر الحديث بأن هؤلاء العمَّال يعملون على زرع أعمدة لتمديد أسلاك معدنية عبرها، وذلك لإيصال التَّيار الكهربائي إلى القرية...

اختلفت الآراء وكثر الحديث حول الموضوع، فانقسم الناس بين مرحِّب ومبتهج ومؤيِّد للفكرة، وبين رافضٍ ومستهجنٍ بالمطلق لمبدأ الكهرباء، وكانت مبررات الأول أن

للكهرباء فوَائدها، وأنه زيادة على الإنارة هناك استخدامات أخرى للحياة، لم يكن أحد من القرويين يسمع بها، كالتبريد، والتدفئة، والكي، والتَّسخين، والاستعمال الصِّناعي وما إلى ذلــك... وحجج ودوافــع المستهجنين كانت أن التيَّار الكهربائي ربَّما قتل الأطفال، وأنَّه بنوره السَّاطع يؤذي العيون، وأنَّه يكلِّف مالاً كثيراً وما إلى ذلك... وعلى كل حال، فإن العمل استمر، وكان مضنياً، لأنَّه كان يدويَّاً بالكامل، وبين حفر الحُفَرِ، ونصب الأعمدة وتمديد الأسلاك، وتنظيم المحطَّات التحويلية في القرى، ومما ثم إعلان موعد لتشغيل الشَّبكات، كان هنالك عدد من الشبابِ قد اهتمَّوا بالأمر واغتنموا الفرصة السانحة، وذهبوا إلى المدينة فتعلَّموا كيفيَّة التمديدات الأوليَّة لإيصال وتشغيل التَّيار الكهربائيِّ في البيوت، وعادوا وعملوا بجدٍّ ونشاط، حيث تركوا بصماتهم البدائية في معظم بيوت القرية، ومنهم بيت أبي حامد، الذي ما زال قائماً وشاهداً على ذلك، فأسَّسوا للمرَّة الأولى لوصول الكهرباء إلى تلك القرية المنسيَّة في أحضان الطبيعة ووجدان الزمن...

انتهى العام الـدراسي في ذاك الوقت، وبـدأت العطلة الصيفية، وكان محمود ناجحاً كعادته، فرحاً، سعيداً بنتيجته، راح يرسم في الصيف أحلامه وتوقعاته للسنة الدراسية القادمة، دون أن يدري ماذا يخبىء له القدر...!؟!

الصَّدمة الثَّانية

كانت الشَّركة المستثمرة للتَّيَّار الكهربائي، تتَّبع نظاماً خاصاً لها في إدارة وجباية أموال المشتركين، فكانت تعتمد لها في كلِّ حيٍّ من أحياء المدن، وفي كلِّ قرية شخصاً متعلِّماً، حائزاً شهادة الدُّروس الإعداديَّة كحدٍّ أدنى، للقيام بمهمَّة مراقبة العدَّادات عند المشتركين الَّذين اشتركوا في التَّيَّار الكهربائي، وأناروا بيوتهم، وذلك لجباية المستحقَّات الماليَّة منهم بشكل شهريٍّ منتظم، وعلى مدار السَّنة، وفي ذلك الصَّيف حيث شعشعت القرى بنور الكهرباء، كان على الراغبين أن يتقدموا بطلباتهم في مكاتب الشَّركة في المدينة، على أن تجري الشَّركة مفاضلة بين الأسماء إذا كانوا أكثر من واحد، وإلَّا فإن كان واحداً، فإن توظيفه يجري بطريقة تلقائية...

هكذا أرادت الأيام أن ترسم لمحمود، وأن تزيِّن له الأمر على أنه جميل، وهو الحائز الشهادة الإعدادية، إلَّا أنه كان دون

العمر القانونيِّ المطلوب، ولكن لمَّا لم يكن هناك منافس له، تمَّ تجاوز الموضوع، وتمَّ قبوله في تلك الوظيفة التي حسب قول أبيه: جاءت إليه ولم يذهب إليها، قال ذلك لأم حامد وهما يشربان القهوة صباحاً؛ أرأيت يا أم حامد، كم أن الله يحبُّنا؟؟ فالوظيفة أتت إلى ابننا محمود، ولم يذهب هو إليها...

سلَّمه إداريُّـو الشَّركة ما يلزمه من سجلات وأوراق وأدوات، ودرَّبوه على عمله المطلوب منه القيام به، وتمنُّوا له النجاح، وأرسلوه إلى العمل...

شاع الخبر في القرية... ولكنَّ فرحة الأبوين لم تكتمل قط... لم يأت أحد لتقديم التهاني ولا للتبريك والمشاركة في الفرح البتة.. حتَّى أن الجيران لم يشاركوا... إلَّا قليل منهم!! والذين كانوا يشربون القهوة عند أبي حامد في كلِّ صباح لم يعد يأتي منهم أحد!!! صار يجلس أبو حامد وحده تحت شجرة التوت يفكِّر في الأمر؟! يضرب أخماسه بأسداسه!!! أم حامد صارت عصبيَّة على غير عادتها، ومحمود ينتظر أبناء جيله فلم يأت منهم أحد!!!. صارت الوساوس والشكوك تنهش صدر أبي حامد... راح قلبه الصَّادق يحدِّثه بأن أمراً ما يحاك في

الخفاء ضدَّ محمود في القرية، وأن ذلك الأمر سيفسد عليه فرحته...

راح عقله يصارع قلبه، فعقله ومنطقه يقولان لا، لا يمكن، فالكل أهلٌ وعلاقتي جيدة وقوية وصادقة وآمنة مع الجميع، ليس لي أعداء، وليست لي عداوات...

ولكن قلبه كان يسأله ولماذا لم يأتِ أحد من كل هؤلاء النَّاس الَّذين تحبُّهم ليهنئك بابنك ويشاركك فرحتك؟؟.

كان قلبه صادقاً، فإحساس الأب لا يكذب، خصوصاً إذا كان إنساناً صادقاً بالأساس، صدوقاً بالمبدأ، مؤمناً ومحبّاً بالفطرة؟؟ أجل، لقد كان إحساسه حقيقة، فلقد تشاور رجال القرية واتفقوا فيما بينهم على أن توظيف محمود جابياً في شركة الكهرباء مرفوض منهم، وكان لكل واحد منهم سببه، فمنهم من كان يشعر بالغيرة وبالحسد، إذ أن أبناء أبي حامد كلُّهم قد انخرطوا في العمل والإنتاج بعد أن حصَّلوا مقداراً من التَّعليم... ومنهم من كان دافعه الجهل والتعصّب، فكان يرى أنَّ دخول شابٍّ في ربيع العمر إلى المنازل لمراقبة العدَّادات، يعدُّ منافياً للأصول الدِّينية المتعارف عليها... وعلى كل حال، تلاقت الأسباب واتفق أصحابها على النتيجة التي لم تكن

لمصلحة محمود، فالكل من كبار رجال القرية، كانوا قد وقعوا اعتراضاً على توظيفه. طالبين من الشَّركة استبداله برجل الدين في القرية، الذي كان رجلاً محترماً جدّاً، تقيّاً، وَرِعاً، لم يسْعَ يوماً إلى ذلك، ولم يرغب يوماً في ذلك... كانت تربطه علاقات قوية، متينة، محترمة بالجميع، بمن في ذلك أبو حامد، علاقة ترقى إلى مستوى الأخوَّة الروحيّة المطلقة...

وما كان على الشَّركة إلَّا أن تستجيب لرغبة أهل القرية، فقامت بإبلاغ محمود بأنه خارج وظيفته، وأنه مستبدل بفلان...

كان وقع الأمر على محمود سيئاً جداً، لم يحتمل الإخراج ولا النتيجة... لم يحتمل رفض أهل القرية له، وهو الذي يحب قريته وأهلها إلى حدِّ العشق... لم يحتمل ناحية التشكيك في مسلكيته وفي تربيته وفي أخلاقه... فمن الذي يمسك عليه ممسكاً إلى تلك اللحظة من عمره؟؟؟... أمَّا عند أبي حامدٍ فكان الأمر مختلفاً تماماً، فمن ناحية ساءه الأمر لأنه تناول ابنه في حلم الوظيفة والحياة والمستقبل الواعد، ومن ناحية ثانية، أعجبه الأمر لأن البديل كان على مستوى كبير من القيمة والاحترام. كان مقبولاً عند الجميع، وكان هو في قرارة نفسه أيضاً يقبلها ويفضلها على ما سواها من كل الاختيارات.

وعلى كل حال، كان على الجميع أن يتقبَّل الأمر، فهكذا كانت الإرادة الجماعية والرغبة العامة، وراح رجل الدين الجليل يقوم بعمله وهو مرهق، متعب، ولكنَّه كان محبّاً واستمرَّ في عمله إلى أن غيَّرت الشَّركة من سياسة الجباية واعتمدت غيرها، فتغيرت الأشياء كلُّها...

أمَّا في تلك المرحلة، فإن محموداً لم يتقبل الحادثة، وبدأت تظهر عليه بعض الانفعالات النفسية التي لم تكن إلى ذلك الحين والحدث ظاهرة... فأصبح ومنذ ذلك الحين مهملاً واجباته المدرسية، ومن ثمَّ بدأ يتغيَّب عن الصفوف، حيث بدأت تتوالى الشكاوى المدرسية إلى الأهل، أين محمود؟؟ لماذا لم يأتِ محمود؟؟ لماذا لم يدرس محمود؟؟ ماذا أصاب ولدكم محموداً؟؟ وما إلى ذلك...

بدأت أم حامد تجد في جيوب ابنها أثراً للسجائر... فتحدثت مع والده الذي كان هو أيضاً بدأ يشكو من تصرفات ابنه الجديدة والغريبة في آنٍ، والتي لم تكن يوماً من صميم ثقافة بيته وتربيته، فراح يحدثه، وينصحه، ويجالسه، سعياً من الأب لاحتواء الإبن ولامتصاص أثر الانتكاسة. بل قل الصدمة الكبيرة الَّتي تلقاها وهو في ربيع العمر ومقتبل الشباب فكان

يأخذه برفقته إن ذهب إلى هنا أو إلى هناك، في عملٍ أو زيارة، أو حتى إلى المدينة لشراء بعض الحاجات من السوق، وكان يتردَّد أيضاً إلى المدرسة محاولاً تحفيز ابنه ودعمه في مسيرته التعليمية عسى أن ينجح في إنهاضه من كبوته...

الصَّدمة الثالثة

وفي أحد أيام الآحاد، أراد أبو حامد أن يزور مختار القرية، فاصطحب محموداً معه، وهناك وفي دار المختار الواسعة التي تضجُّ بالضيوف، سلَّم أبو حامد وابنه على الحضور، وكان بينهم رجل غريب، وسيم القامة، جميل الوجه، له حضوره وهيبته... وبعد أن جلسا، وراح الجميع يتبادلون أطراف الحديث، وبما أنَّ أبا حامدٍ كان لائقاً، يُحسن الغوص في الكلام مع الآخرين، استطاع أن يعرف من ذلك الغريب أنه ضابط كبير في الجيش، وأنَّه أتى إلى القرية يبحث عن قطعة أرض ليشتريها، ويجعلها مزرعة له، يرتادها هو وعائلته في أيام العطل، لقضاء أوقات الراحة بعيداً عن المدينة والعمل والتعب... وبعد أخذ وردٍّ في الكلام، سأل الغريب أبا حامد، هل هذا الشاب هو ابنك؟؟ فأجاب أبو حامد بنعم، فسأل الغريب وماذا يعمل ابنك يا أبا حامد؟ فأجاب: نبحث له عن وظيفة يا سيدي، فهو الآن في

السنة الثانوية الثانية. فابتسم الغريب وقال رائع، رائع، حسناً، حسناً...

والتفت إلى محمود وقال: أتريد أن تتطوع جندياً في جيش البلاد يا بنيَّ؟؟ فأجاب الأب فوراً، بدون تردُّدٍ: هذا شرف كبير يا سيدي، ومن لا يريد أن يكون جندياً في صفوف الجيش؟؟ ولكن كيف؟ إن الدخول إلى صفوف الجيش صعب جداً. «بل كان يقارب المستحيل في ذلك الزمن، كان حِكراً على رجال السياسة، ويتوقف الأمرعلى المحسوبيَّات والمحسوبين على هذا الزعيم السياسي أو ذاك... وكان التوزيع الطائفيُّ يصل بكل من يسعى إلى التطوع في صفوف الجيش إلى حدِّ اليأس من المحاولات» قال الغريب: لا عليك، لا عليك: أنتظرك في العاصمة، في مكتبي، وحدَّد له الزمان واليوم المناسب، وأخرج من جيبه بطاقة تحدِّد عنوان عمله تماماً لتسهيل وصول أبي حامد وابنه إليه...

فرح أبو حامد وابنه فرحاً شديداً، وغادرا بيت المختار وهما يكادان يطيران من السعادة التي تغمرهما، يسرعان في الخطى لإخبار أم حامد بالخبر السَّعيد... فرحت أم حامد وبكت من فرحها، وصنعت لعائلتها حلوى من الجوز والسكر

والخبز على «الصاج»، في هذه المناسبة السَّعيدة، وراح الوالدان يصلِّيان لله لإتمام النِّعمة التي بدأت تتراءى في الأفق، لعلها أفضل ألف مرَّة من تلك التي خسرها محمود نتيجة لعدم قبوله من أهل قريته...

بضعة أيام كانت تفصلهما عن الموعد، اعتبراها دهراً... ولكن ذلك الدهر الطويل مضى، وكانت الليلة التي بعدها يجب أن يسافرا إلى العاصمة... لم يناما، بل أمضيا الليل، واحد يصلي، وآخر يقلِّب بين يديه بطاقة الرجل الغريب، وكأنها كنز كبير أرسلها الله إليه.. وبعد صلاة الفجر، وضع أبو حامد البطاقة في جيبه، وانطلقا في الحافلة الوحيدة التي تنطلق من المنطقة يومياً إلى العاصمة. وهناك في المدينة، قروِّيان يجهدان في الشوارع الكبيرة والأبنية العالية، يسألان هذا وذاك، ويتعبان في السؤال، ولكن بعد عذاب شديد، وصلا إلى العنوان المطلوب منهكين، فأفرحهما أن ذلك الغريب كان قد أوصى حرسه الخاص بهما منذ الصباح، قائلاً: عندما يصل فلان وفلان أحسنوا استقبالهما، وهكذا كان... دخلا إلى مكتب كبير وثير، يعج بالحركة والنشاط، هذا يأتيهم بالماء، وذاك بالقهوة، وذلك بالشاي.. كانا سعيدين أكثر من اللازم، حتى أنهما نسيا كلَّ

التَّعب، وبعد قليل، خرج عليهما من مكتبه وسلَّم عليهما سلاماً حارَّاً وكأنْهما من عائلته المقربين... دخلا إلى المكتب، وبعد كلام وأسئلة عن الصحة والحال والقرية والمختار... نظر الضابط الغريب إلى محمود الذي كان يقلب عينيه في المكتب الجميل، وقال: يا بنيّ: أهلاً وسهلاً بك، لقد أجريت كل ما يلزم لتكون جندياً في الجيش، وبعد أن تنهي تدريباتك ستعمل معي في هذا المكتب، فما رأيك؟؟ إني أرى أنَّه يعجبك!! هنا احمَّر وجه محمود خجلاً، وقال كما تريد يا سيدي... فابتسم الضابط والأب... ثم أردف الضابط قائلاً: أنت يا أبا حامد: تستطيع أن تعود إلى القرية، ولا تفكِّر في أيِّ شيء بالنسبة إلى ابنك فهو منذ هذه اللحظة بأيدٍ أمينة...

وقف أبو حامد ليشكر الضابط الغريب، وليودِّعه قبل العودة إلى القرية، وإذا بأحد الجنود العاملين في المكتب يدخل إلى الضابط وبيده ورقة، ويقدمها له ويقف قربه وقفة التأهُّبْ...

قرأ الضابط الورقة، فتجهَّم وجهه، وتقطَّب جبينه، وبدأ العرق يتصبَّب منه...

جلس على كرسيِّه خلف مكتبه وأغمض عينيه، وألقى برأسه بين يديه، وصمت، وخيم الصَّمت على المكان... تحدَّث

أبو حامد سائلاً: خير إن شاء الله يا سيدي؟؟ لقد أخفتنا... ماذا جرى؟؟ ماذا قرأت في تلك الورقة اللعينة؟؟.

تنهَّد الغريب ونظر إلى أبي حامد وقال بصوت خافت: وكيف عرفت يا أبا حامد أنَّها لعينة؟؟ نعم إنَّها الورقة اللعينة... آسف يا عم أبو حامد... لقد رفضت الاستخبارات أن يكون محمود جندياً في الجيش... فهناك تقرير سرِّيٌّ عند المخابرات يقول إن ابنك ينتمي إلى حزبٍ يساري.

أرجوكما أن تعذراني وأن تتفهَّما موقفي... فأنا لا أستطيع أن أتجاوز تقارير الاستخبارات... وصمت.. وصمت الجميع.. وخرج أبو حامد مع ابنه محمود مكسوري الخاطر، متجهِّمي الوجه، حزينين، كلٌّ يفكِّر في الأمر على طريقته... فأبو حامد يسأل نفسه ولا يجد جواباً، لماذا بعد كل الفرح الذي عشته، أجد أنَّ الأيام بدأت تعاكسني؟؟ فأيّ ذنب اقترفت؟؟ وأيّة خطيئة فعلت؟؟ ويناجي ربَّـه بصوت قلبه قائلاً: «يا رب دخيلك»...!!

ومحمود يسأل نفسه لماذا يرفضني وطني الآن بعد أن رفضتني قريتي؟؟ فهل أنا سيِّىء إلى هذه الدَّرجة؟؟ وأيُّ يسار ذاك الَّذي اتَّهموني به؟؟ وأيُّ يمين؟؟ أنا لا أفهم في أمور

السياسة شيئاً... فمن الَّذي تجنَّى عليَّ واتَّهمني بذلك؟؟ كانت أسئلة مشروعة... ولكن لم يكن لدى محمود أيُّ جواب...!! لم يدرِ أن نفسه ومنذ تلك اللحظة بدأت تدفعه إلى معرفة اليسار واليمين... أي بلغة أخرى، إلى الانخراط في الميدان السياسي الذي لم يكن قد تعاطى في شؤونه حتى تلك اللحظة من عمره....

أسرعا إلى المكان الذي تقف فيه الحافلة التي ذهبا بواسطتها إلى العاصمة لكي لا يتأخرا... فوصلا في الوقت المناسب، وعادا أدراجهما إلى القرية ولكن بمزاج مختلفٍ ودموع أرادت أن تنطلق من العيون، إلَّا أنَّ قدرة الرجال منعتها من ذلك...

وصلا إلى البيت منهكين من السفر، ومن الخيبة، لم يتكلَّما، ولم يتناولا طعام العشاء، بل ناما حزينين، وكأنَّهما فقدا غالياً عليهما، وهكذا نامت أم حامدٍ ونامت الأخوات... وفي الصباح روى أبو حامد لزوجته ما جرى لهما، وهما يشربان القهوة... واشتكيا إلى الله وتأمَّلا بالله خيراً في الأيام القادمة...

أمَّا محمود فإنه لم يستفق من نومه كعادته، بل كان متجهِّم الوجه، غاضباً جدّاً إلى حدّ أنَّه رفض أن يتناول طعام الفطور...

ورفض الذَّهاب إلى المدرسة أيضاً... تناوله والداه بالحديث الهادىء لعلَّه يهدأ وتهدأ ثورته... لكنَّ الأمر كان مختلفاً هذه المرَّة، لأنَّ أمراً ما في نفسه كان قد بدأ يطغى على ما سواه من الأفكار... كانت ثورته على مجتمعه الَّذي رفضه بدون ذنب اقترفه، وعلى وطنه الذي رفضه بتهمة هو بريء منها، عارمة إلى درجة أنها أخذت كلَّ تفكيره، ولبست شخصيته تماماً... فأحلامهُ الجميلة وتطلُّعاته، وعذابات عمره، شكَّلت له تراكمات فكرية ونفسيَّة كانت قريبة جداً، بل قابلة جداً لأيِّ عمل سياسيٍّ يساريٍّ، ينطلق من طبقة الفقراء والكادحين والعمَّال والمثقفين الثوريِّين... لذلك وجد في أصدقائه الذين كانوا ضمن الإطار اليساريِّ الشيوعي أفقاً رحباً، ومجالاً جميلاً يعبِّر عن كلِّ آلامه وآماله وأحلامه وعذاباته وثورته...

الضَّياع

بعد تلك الصَّدمة، وما تركته من آثار نفسيَّة انفعاليَّة على محمود، تغيَّر الوضع في ذلك البيت كثيراً... قرر محمود أن لا يتابع دراسته الثانويَّة، فصار يستيقظ صباحاً، ويحمل كتبه، ويخرج من البيت، إلَّا أنه لم يكن يذهب إلى المدرسة قط... كان يلتقي بعض الأصدقاء المنظَّمين في أُطُرٍ حزبيَّة، يساريَّة، وكانوا يقومون بنشاطات فكرية، وحزبية، خاصة...

كان يعود مساءً إلى البيت وفي حقيبته بعض الكتيِّبات الحمراء لكارل ماركس مؤسس النظرية الشيوعية، وللينين، مؤسس الدولة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، الذي كان يعدَّ القوة العظمى التي يُحسب لها ألف حساب في ذلك الزمن الغابر...

بدأ أبو حامد ينتبه لما كان يجري، فحاول بحكمته كثيراً أن يحدَّ من خروج ابنه عن الطَّريق الَّذي أراده له في الحياة، والذي

كان يراه مثاليًّاً ومستقيماً... أشرك في محاولاته ابنه ماجداً، ثم استنجد بحامد، ولكن كل المحاولات لم تفلح، لأنَّ ثورة محمود كانت قد طغت على كل شيء آخر، فجروحه النفسية، لم يعد من السهل شفاؤها، وغضبه على مجتمعه، ووطنه لم يكن له حدود.

حاول حامد الذي كان يكافح ويعمل جاهداً في رمال الخليج ولهيبه أن يستميل محموداً إليه، فدعاه إلى هناك، لعلَّه يجد في تلك البلاد ملاذاً، فيعمل، وتهدأ نفسه... ذهب محمود إلى بلاد الرمل والنفط، فلم يحتمل حرَّها وجوَّها، ولم يستطع أن يجد ليديه الناعمتين عملاً يناسبهما، فقفل عائداً من هناك، لأن في داخله غضباً يدفعه للعودة إلى الوطن، الذي كان يرى أنه بحاجة إلى تضافرٍ للجهود لكي يعود وطناً للجميع دون استثناءات، ودون حكم الاستخبارات الموجَّه من السياسة الغبية...

آمن بفكرة الصِّراع الطبقي، واندمج في تلك الأجواء الفكرية الثقافية، ووجد فيها عالمه الَّذي كان يبحث عنه... بل على الأصحِّ، وجد فيها منارته الَّتي أراد أن ترشده في ذلك الضَّياع الكبير...

صورة عن الواقع السياسي في البلاد في ذلك الزمن

في النِّصف الثاني من السِّتِّينات، وبعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧، وبعد انطلاق منظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة فعلياً في ميدان العمل المقاوم للكيان الصهيونِّي المحتل لأرض فلسطين، صارت البلاد تعجُّ بحياة سياسيَّة فتيَّة، صاخبة، كان فيها من كلِّ طعم، ومن كلِّ لون، وكان فيها الغثُّ والسَّمين... ومن كلِّ المتناقضات الفكرية والأيديولوجية والسِّياسيَّة، وذلك لسببٍ بسيط، أنَّ حيِّزاً من حريَّة الفكر والرَّأي والتَّعبير، كان يميِّز البلاد عن محيطها، فجعل ذلك الواقعُ التُّربة السياسيَّة صالحةً لاستنبات كلِّ أنواع الحركات السِّياسيَّة في الدَّاخل المحلِّي الَّـذي كان يتشكَّل من مزيج هائل من الأصـول الطائفية والمذهبية، والفكرية، ومن المصالح السياسيَّة، والصِّراعات الطَّبقية، والتَّمايزات في الرؤى وفي الارتباطات بالخارج الذي

لم يكن يوماً إلَّا عاملاً أساسيَّاً في كل الأزمات التي تعرَّض لها الوطن... كل ذلك تزامن مع انطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ضد الكيان الصهيوني الغاصب، والتي كان لها وجود وازن جداً في البلاد... كل ذلك أدَّى إلى نشوء حراك سياسيٍّ كبير، راوح في عناوينه الكبرى بين أربعة اتجاهات: الاتجاهان الأولان هما: اليمين واليسار، والاتجاهان الثانيان هما: الاتجاه القومي العربي من جهة، واتجاه الانعزال بالوطن عن كل محيطه العربي، وهو اتجاه إقليمي لم يكن له أي أفق ولا أية رؤية...

بالإضافة إلى اتجاهات أخرى بدأت ضعيفة وازداد دورها وثقلها وهي الاتجاهات الدينيَّة، التي بدأت طائفيَّة واسعة ثم ضاقت على نفسها لتصبح مذهبية، وأخرى أضيق لتصبح فئوية ضمن المذهب الواحد، لذلك ظهرت عشرات الحركات والأحزاب والتنظيمات وكانت تسعى كلُّها، وكلٌّ واحدة منها، على طريقتها، لاجتذاب أكبر عدد من المؤيدين والمحازبين والمناصرين... وخصوصاً بعد انطلاق حركة المقاومة الفلسطينية أو ما كان يُعرف بمنظمة التحرير الفلسطينية، التي عبر تنظيماتها عملت ومنذ اللحظة الأولى، على التواصل مع أبناء البلد، ودفعت باتجاه ذلك بكل قوتها، وذلك لتستقوي

بأبناء البلد، ولتجعل منهم ظهيراً لها عند الحاجة... وقد نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً، جعل حركتها بكمية المناصرين لها من الوطنيين تفوق بكثير أعداد المناصرين للأحزاب الوطنية الموجودة على الساحة قبل القضية الفلسطينية، وقبل النكبة وقبل انطلاق منظمة التحرير.. كان المجال الأهم والأخصب لعمل الأحزاب والحركات موجوداً في شرائح الطلاب في المدارس والجامعات، فهناك المجال الثقافي، وإمكانية التحاور، والتواصل، والتداخل، أكبر بكثير من كل المجالات الأخرى...

هكذا كانت العدوى قد وصلت إلى محمود، وبسبب الصَّدمات الَّتي لم يتوقَّعها، تمكَّنت منه العدوى، وغزت فكره، وجعلت منه بالفعل حزبيّاً يساريّاً، سرّاً في البداية، وعلناً بعد حين...

كانت سنوات النصف الأول من السبعينيات، وكان محمود قد غادر المدرسة نهائياً، وكان يمضي معظم أوقاته مع مجموعة من رفاق الصفِّ الذين منهم من استمرَّ في الدِّراسة ومنهم من غادر المدرسة... ولكنَّهم كلُّهم كانوا ضمن إطار حركة سياسيَّة واحدة، يتبادلون كراساتهم الحزبية ويتحدثون لغة

غريبة على مسامع الناس، لم تكن مألوفة البتة، فالصراع الطبقي كان محور حديثهم... وثورتهم على الإقطاع السياسي المتحكِّم في كل مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في البلاد، كانت أيضاً غريبة ومستهجنة في مكان، ومقبولة في مكان...

كنت إذا رأيتهم وجدتهم مجموعة من الشباب الثائر المتوقِّد عزيمة وثـورة... أمَّا إذا حادثتهم بهدوء وجالستهم وجدتهم مجموعة من المحبطين، المدمَّرين إلَّا من الأمل الذي كانوا يتسلحون به، والذي كانوا يعتقدون أنه هو الحل الأمثل لكل قضايا الوطن الصعبة...

شكَّل محمود في تصرُّفاته تلك صدمة كبيرة لوالديه... فلقد اعتبرها أبو حامد انتكاسة له في تربيته لأبنائه، وفي مجمل أحلامه التي كان يعقدها على تلك التَّربية، وهو يراهم يترعرعون تحت نظره، وينخرطون في الحياة، والإنتاج كما كان يودُّ ويحلم، وكما فعل إبناه الكبيران من قبل. أصيبت الأسرة كلُّها بتصدّع كبير نتيجة لانفعالات محمود المتراكمة وغضبه المتنامي، وثورته الجامحة التي لم تكن لتقف عند حدّ ولا عند أفق...

كان أبو حامد يمضي وقته حزيناً، عابساً، يصلّي لله، ويدعو لابنه بالهداية والرجوع عن الطريق الذي يسلكه... وكان لا يدع فرصة تفوته إلّا يحاول إقناع محمود بشيء ما، ولكنه ورغم مرور الأيام وكثرة المحاولات، لم يستطع إقناعه بشيء من بنات أفكاره... في حين كان محمود يحاول أن يجمّل صورته أمام العائلة والناس جاهداً لإيجاد طريقة يثبت فيها أنه قادر على تحمُّل مسؤولية ذاته وقراراته... فحاول أن يعمل وأن ينخرط في مجالات شتى، إلّا أنها كلُّها كانت محاولات بائسة يائسة لم تصل به إلى بر الأمان، ولا إلى أية رؤية، بل إلى مزيد من التّأزم النفسيّ والفكري، فأصبح صعب المراس، عنيفاً، وانفعالياً، يدخن بطريقة لافتة، ويتصرف بطريقة أخرى غير لائقة، أبعدته شيئاً فشيئاً عن العلاقات الاجتماعية الجميلة في القرى، والتي كان أبوه المتعب، قد جهد طوال عمره ليتقنها ولينسجها بشكل متين غير قابل للتخريب مهما جرى..

لم يطل الوقت كثيراً، حتى اندلعت الحرب الأهلية في البلاد عام ١٩٧٥، وكانت حرباً شرسة مدمِّرة، أظهرت أموراً وحقائق لم تكن لتظهر لولا نار ذلك الأتون الحارق...

الحرب الأهلية عام ١٩٧٥

اندلعت شرارة الحرب الأهلية في البلاد عام ١٩٧٥، ولم تكن لتتوقف عند حدٍّ، رغم كل المحاولات والجهود التي بذلها كثيرون، منهم من كان صادقاً، وبدوافع إنسانية، وأخلاقية، ووطنية. ومنهم من كان كاذباً، مخادعاً، وبدوافع استخبارية عالمية، كان بمجرد تدخلاته يصبُّ الزَّيت على النَّار، ويزيد الأتون تأجُّجاً... كانت حرباً قذرة بكل ما في الكلمة من معنى... راوحت عناوينها وشعاراتها ضمن مسافات واسعة، أظهرت في مضامينها أن مسافة طويلة، ومجالاً بعيداً كان ما زال يفصلنا في تلك الأثناء وفي ذاك الزمان عن الانتماء الفعليِّ والحقيقيِّ إلى الوطن... وأظهرت الحرب هشاشة وضعنا السِّياسيِّ، والوطنيِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، فتبيَّن أنَّنا كنَّا أكثر جاهلية من الجاهليَّة نفسها، وأكثر وثنيَّة من الوثنيَّة عينها، وأكثر إجراماً من الوحوش... وأظهرت الحرب الحقيقة

المزيَّفة للقوى السياسيَّة وللحياة السياسيَّة الَّتي كانت تبدو للمراقب ناشطة وحيويَّة قبل الحرب، فإذا بتلك القوى تظهر على حقائقها التي كانت بمعظمها مرتبطة بقوى إقليميَّة، وخارجية، وعناصر استخبارية، عالمية، أو بتنظيمات المقاومة الفلسطينية... وكان لكل طرف منها مآربه وأهدافه... فجنَّد من استطاع من قوى الشباب المحلِّي لخدمة تلك المآرب والأهداف، التي ترمي جميعها إلى تخريب الوطن وتهجير قسمٍ من أهله وتحويله في النِّهاية إلى وطن بديلٍ للفلسطينيين المشرَّدين بفعل الاحتلال الصهيوني الغاشم لأرض فلسطين منذ العام ١٩٤٨، أمام مرأى العالم كله، وسكوت العالم كله، ودعم العالم كله...

اختلط الحابل بالنابل، واشتعلت النَّار في كلِّ مكان، وأصبح ذوو العقول الرَّاجحة غير قادرين على الكلام ولا على الحركة... فالميدان كان قد أعدَّ بإتقان شديد لأصحاب الغرائز والقتلة والمجرمين، وأصحاب القلوب السوداء، والنُّفوس المريضة، والنيات السَّيئة، والمرتزقة... فعمَّ اللَّهيب كل مكان، وصار جحيماً لا يُحتمل، وانتشرت الجريمة في كل زاوية من

زوايا الوطن... وانتشرت أيضاً التَّعدّيات والسَّرقات... تعطَّلت المدارس والحياة المدنيَّة، والمنطق، وغاب القانون لتسود شريعة الاقتتال العبثيِّ... وانتشر المسلَّحون في كلِّ المدن والأحياء والشَّوارع والقرى... وأصبحت الطرقات غير آمنة والحركة في غاية الخطر...

من العناوين العريضة التي أعلنها المتقاتلون هو: الوجود الفلسطينيّ في البلاد...

فلقد كان الوجود الفلسطينيُّ المسلَّح في البلاد ينمو ويقوى ويشتد عُودُهُ، يوماً بعد يوم بعد انطلاق العمل الفلسطينيِّ المسلَّح ضد الكيان الصهيونيِّ المحتل لأرض فلسطين... وكانت المخيمات الفلسطينيَّة هي المواقع المهمَّة للمقاومة الفلسطينية، التي عملت أيضاً وعبر سنوات قليلة على استنبات أحزاب محليَّة رديفة لها، تمدُّها بالقوَّة والدَّعم... شكَّل النمو المتصاعد للقوَّة الفلسطينية المسلَّحة إزعاجاً للكيان الصهيونيِّ ولكلِّ القوى الاستخبارية العالمية العاملة لخدمة ذلك الكيان الغاصب المجرم الجاثم على أرض فلسطين ومقدساتها، التي هي مقدسات الأمَّة كلِّها...

عملت تلك القوى الاستخبارية العالمية عملها الشَّيطانيِّ على السَّاحة المحليَّة، فجنَّدت من أرادت، من حيث يدري ومن حيث لا يدري، إذ جندت الناس انطلاقاً من انقساماتهم، وطائفياتهم ومذهبياتهم، ومصالحهم الشخصية إذ لم تدع تلك القوى الاستخباريَّة نافذة إلَّا دخلت عبرها لتنفث سمومها، ولتؤجج روح الانقسام وبالتَّالي روح الاقتتال، حتى أوصلت البلاد إلى حافة الانفجار الرهيب الذي بدأ مع ما تعارف عليه المراقبون بحادثة «عين الرمَّانة»... إذ استفاق الوطن منقسماً تلقائيّاً إلى معسكرين متقاتلين حتى الموت...

١ - معسكر اعتبر نفسه مدافعاً عن القضيَّة الفلسطينية وبالتالي عن الوجود الفلسطينيِّ المسلح.

٢ - ومعسكر اعتبر نفسه معادياً للوجود الفلسطيني المسلَّح وبالتالي معادياً للوجود الفلسطينيِّ ككلٍّ... وبالتالي للقضيَّة الفلسطينيَّة برمَّتها...

ودارت طاحونة القتل، بين كلِّ النَّاس وكلِّ النَّاس..

وانتشرت جبهات الاقتتال في كلِّ مكان...

وانتشرت الدماء والدموع...

وزجَّت الأحزاب... كلُّ الأحزاب بمؤيديها وبشبابها في أتون المعركة العبثية القاتلة...

وهكذا كانت تلك الحرب اللعينة التي لا يذكرها أحد بالخير أبداً إلَّا أعداء الوطن...

الخروج الأخير

كان السادس عشر من كانون الأول عام ١٩٧٥، وكان يوماً ماطراً، عاصفاً، بـارداً، وكل العائلات تتحلَّق حول المواقد والمدافىء في القرى، ولا يخرج من البيت إلَّا الباحث عن حاجة والمضطرُّ إلى ذلك...

وبعد الغروب، وبينما كانت أم حامدٍ تعد الطَّعام للعائلة، كان محمود على حركة غير معتادة... وإذا به يهمُّ بالخروج من المنزل في ذلك الجوِّ الشَّتويِّ القارس... فنادته أمُّه: إلى أين أنت ذاهب يا بنيِّ؟؟ ألا ترى المطر والبرد والرياح؟؟ إنِّي أعددت العشاء.. إبق لنتعشَّى معاً قرب المدفأة...

فأجابها وهو يخرج من البيت: سأعود، سأعود يا أمِّي أتركوا لي حصَّتي... لا تنسوا!! سأعود...

وخرج من البيت، ولم يقل كلمة وداعٍ لأحد...

ولم يخبر أحداً إلى أين كان ينوي الذَّهاب، أو لعلَّه لم يكن

يعلم هـو نفسه إلـى أيـن كـانـت تلك الليلة الـسـوداء ستقوده؟؟؟...؟؟؟...

ذهب... ويبدو أنَّه كان على موعد مع رفاقه في حزبه اليساريِّ، الذي كان مرتبطاً بأحد التنظيمات الفلسطينية المسلَّحة، والذي كما بدا حينها أنَّه زجَّ بنفسه وبمحازبيه في لهيب الأتـون... في طاحونة الاقتتال الرَّهيب الذي لم يكن ليرحم أحداً ممَّن يدخلون فيه...

هكذا التقى الرفاق، فحمَّلتهم قيادتهم الَّتي كانت إمَّا غبيَّة وإمَّا متآمرة عليهم، سلاحاً فردياً، وألبستهم لباساً عسكرياً وأرسلتهم في سيارات خاصة، تحت جناح الظلام لخوض معركة لم تكن مفهومة مبرراتها، وبالأساس لم تكن لها مبررات، لولا الإيماءات الاستخبارية العالمية والاستجابة المحلية لها تحت فعل الإغـراءات، لتحقيق أهداف ومآرب ومقاصد، كانت، وما زالت وستظل، طالما في بلادنا ثروات، وطالما بلادنا كانت منبعاً للنُّور الذي عمَّ الدُّنيا، واستقرَّ نوراً وهداية وأدياناً للكون، في حين لم تنتج حضارات الغرب إلَّا أسلحة الدمار، ومرض الإيدز، وتكنولوجيا السرقة واللصوصية والتجسس...

نعم... أرسلوا الشَّباب الأغرار إلى أتون المعركة... وذوو محمود يتناولون طعام العشاء حول المدفأة في بيتهم القروي المنزوي على أطراف قرية منسية بين أشجار اللوز والزيتون ومجاهل النسيان والفقر والحرمان.. كانت معركة غير متكافئة، فلم يكن الشباب رجال قتالٍ أصلاً، ولم يكن القتال صنعتهم في يوم من الأيـام، ولا من أخلاقياتهم، ولا عاداتهم، ولا من أهدافهم التي تربُّوا وعاشوا عليها ومن أجلها... لم تطل المعركة... فبمجرَّد وصولهم إلى أرضها كان الموت ينتظرهم...

كانوا في عمر الزُّهور... في ريعان الشَّباب، قضوا ولا يعرفون لماذا؟ ولا من أجل ماذا؟ قضوا وهم يصرخون من الألم والنار تنهش أكبادهم، بينما كان مسؤولوهم في مكاتبهم ينتظرون الأخبار!!! لا أدري بما شعر أولئك المسؤولون عندما وصلهم نبأ موت رفاقهم... لا أدري إن شعروا بعذاب الضمير كما تعذب الرِّفاق وهم يتخضَّبون بدمائهم بين الصُّخور؟؟

لا أدري ماذا كسبوا (أولئك المسؤولون) من موت رفاقهم؟؟ ربما كسبوا مالاً!! أو ربما كسبوا مواقع أكبر لهم في تنظيماتهم الهجينة...

هكذا كان خروج محمود الأخير... كانت أمه بانتظاره كي يعود، فقد تركت له طعاماً للعشاء، فلقد وعدها أن يعود.... ولكنه لم يعد...

الخبر المشؤوم

كان الحدث كبيراً، وكان الخبر قاسياً جداً... وفي ذلك الزمن لم تكن هناك وسائل اتصال حديثة كالتي تشهدها البلاد في هذه الأيـام... لم يتدارس مسؤولو الحزب إطلاقاً كيفية إخبار الأهل بالكارثة، بل استعجلوا كثيراً وبالرَّغم من الأوضاع الأمنية المتردّية في البلاد، وصعوبة الانتقال من مكان إلى آخر، قرَّروا إخبار الأهل ليلاً بالخبر المشؤوم... فزَّفوا إلى أهالي القتلى خبر «استشهاد» أبنائهم في معركة بطوليَّة، على حدِّ ما جاء على ألسنتهم في نشر الخبر... أجل لقد كانوا شهداء لما آمنوا به وصدَّقوه، ولكنَّهم قضوا دون أن يعرفوا أنَّ ما آمنوا به وصدَّقوه كان لعبة قذرة لكلِّ استخبارات الكون على أرض الوطن المستباح...

وصل الخبر المشؤوم ليلاً وفي ساعة متأخِّرة إلى ذوي محمود... فوقع وقوع الصَّاعقة على الجميع... كاد أبو حامد

يموت قهراً، وكادت أم حامد أن تموت وهي تنتحب... جفت المآقي فلم يعرف أحد كيف يبكي!!!.

وبُحَّت الحناجر فلم يعرف أحد كيف يصرخ!!!.

لم تبق إلَّا العيون شاخصة... فالكلُّ ينظر إلى الكلِّ في حالة من الذهول والخوف وعدم التَّصديق..!!!.

لم يعرف أحد النوم...

انطفأت المدفأة ولم ينتبه أحد للأمر، ولم يضع أحد الوقود في خزانها...!!

كان على الجميع الانتظار حتَّى الصباح... كانت ليلة طويلة كأنَّها ألف عام! لم يعرف أحد فيها النوم ولا السلام... وأخيراً طلع الضَّوء، وكانت العاصفة التي كانت تعصف في اليوم السابق قد هدأت، والغيوم قد رحلت.. خرج أبو حامد من باب بيته ليلقي نظرة على الدُّنيا وليتأكَّد أنَّها ما زالت هي هي ولم تتغيَّر، فوجد كلَّ رجال القرية وكلَّ نسائها متحلِّقين حول البيت، صامتين، لا ينطقون بكلمة... هرعوا إليه للمؤاساة والعزاء... وأتى كلُّ الذين يملكون سيَّارات في ذلك الزَّمن تطوُّعاً بسياراتهم للذهاب مع كل رجال القرية لاستقدام جثمان محمود من المستشفى حيث يرقد...

ركب من ركب حينها في تلك السيارات وانطلق موكب صغير بسيط باتجاه المدينة... في وقت كان التنظيم الذي دفع أولئك الفتية قد حضَّر لنقل الجثمان موكباً أكبر وانطلق به باتجاه القرية، فتلاقى الموكبان في منتصف الطريق، وامتزجا، ليشكلا حينها موكباً كبيراً. اتجه بهدوء بين القرى والبلدات، حيث استقبل الناس جثمان «الشهيد» بكثير من الحفاوة ومظاهر الحبِّ، وأصرَّ النَّاس في كل تلك القرى على حمل النَّعش على الأكتاف، تكريماً لفعل الاستشهاد. استغرق ذلك وقتاً طويلاً حتى وصل الموكب إلى القرية، وإلى المنزل الحزين، حيث كان المودِّعون بالآلاف، ولكن كان هناك قلب أم واحدة، وقلب أب واحد... ودَّعته أمُّه الثكلى ببكاء يفطر القلب وودعه أبوه بدمعتين نادرتين... وودعه إخوته وأخواته بكثير من اللوعة والأسى ومن ثم ودعه الجيران وأهل القرية... ومن ثمَّ حمله الرِّفاق لإتمام مراسم التَّشييع الَّذي تحوَّل إلى مهرجان خطابيٍّ، سياسيٍّ، أراد من خلاله تنظيمه أن ينشر دعايته ويثبت دعائمه في قرية دفعت دماً وروحاً ودموعاً من ذاتها...

ووُري محمود في الثرى، ووضع الرفاق والمشيِّعون على ضريحه عشرات الأكاليل، وأطلقوا تكريماً له ما لا يُعدُّ ولا

يحصى من الطلقات النَّارية... وفي النِّهاية، انفضَّت الجموع، وعاد الناس إلى بيوتهم ليروي كلٌّ ما رآه وما سمعه لأبنائه، على أن تبدأ مراسم العزاء ابتداءً من اليوم التَّالي ولمدة أسبوع...

الجزء الأخير

في صبيحة اليوم التَّالي، أرادت أم حامد، الثَّكلى، أن تزور ضريح ابنها الفقيد... فذهبت وقلبها يخفق شوقاً ولهفة، ودموعها تنهمر حزناً وحرقة برفقة أبي حامد وأبنائها... فهالهم ما رأوه وما وجدوه... لقد وجدوا كلَّ الأكاليل محطَّمة، وممزَّقة، ومبعثرة، بفعل اعتداء آثمٍ على ضريح يضمُّ جثماناً لا يقوى على الدفاع عن نفسه... فبكت أم حامدٍ، بكاء أشدّ من بكائها بالأمس، وبكى الجميع، واعتبروا الأمر اعتداءً جديداً على ابنهم، واعتداءً على قداسة الموت، وهيبة الجنازة التي شهدتها القرية بالأمس، ومهابة الآلاف الذين حضروا التشييع تكريماً للفقيد، وإكراماً للقرية كلِّها... فمن هو هذا الخفَّاش اللَّعين الَّذي لم يجد لنفسه مكاناً ولا وقتاً إلَّا تحت جنح الظَّلام ليفعل فعلته؟؟ وليكون القاتل والمعتدي في أقلِّ اعتبار؟؟ بكى

الجميع، وشكوا أمرهم إلى الله، لأن الله هو ملجأ المظلومين وسامع دعائهم...

عادوا إلى المنزل بجرح جديد في القلب، لتبدأ مراسم العزاء، وليتقاطر المعزُّون من كلِّ حدب وصوب، وليستمر ذلك أسبوعاً كاملاً... كان أسبوعاً مضنياً، ولكنَّه ساعد على بلسمة جروح الأهل ولو بشكل طفيف... فلقد أظهر الناس تعاطفاً كبيراً مع عائلة أبي حامد، وكان ذلك من كلِّ أبناء القرية، ومن كلِّ القرى والبلدات المجاورة، ومن كلِّ الطَّوائف والمذاهب والمشارب دون استثناء... كان العزاء كما كان يصفه أبو حامد فيما بعد عرساً لمحمود... ولكن الجرح بقي في القلب، فلقد فقد أبو حامد أجمل بنيه، بعد أن تحطَّم قلبه مرَّة تلو مرة، وبعد أن دفعه اليأس إلى ركوب موقع الخطر القاتل... وفقدت أم حامدٍ فلذة الكبد المتَّقدة حسناً وذكاءً ونشاطاً وعنفواناً... وبقي جرح الاعتداء على الضَّريح ينزف، ويتجدد نزفه في كل مناسبة كان يوضع فيها إكليل من الزَّهر عليه... مرَّت السنوات، ومرَّت المناسبات، وتكرَّر وضع الأكاليل، وتكرَّر تمزيقها بالطريقة نفسها، وتكرَّر نكء الجرح الَّذي ظل ينزف في ذاكرة والديِّ محمود... مما دفع والده إلى أن يطلب من ذلك التنظيم أن

يكفَّ عن وضع الأكاليل ليخفِّف من ألم الأم التي ما عادت تحتمل... وهكذا كان...

توفي أبو حامد بعد حادثة ابنه بسنوات... وبقيت أم حامد تزور ضريح ابنها وتبكيه، وظلَّ الجرح ينزف من ذاكرتها، وظلت تسأله في كل مرَّة تزور ضريحه: - قل لي يا بنيّ: من قتلك؟؟

١ - أهـو المجتمع الجاهل الـذي رفضك جابياً للكهرباء؟؟.

٢ - أم هو النظام الاستخباري الغبيِّ الذي حاكمك بناءً على تقرير غبيٍّ لرجل حاقد، فجعل من وطنك يرفضك متطوعاً لخدمته؟؟.

٣ - أم هو حزبك اليساري الذي صدَّقته وآمنت بشعاراته وقرأت كتبه، فدفعك إلى الموت ليجعل لنفسه رصيداً من الدماء يتقاضى على أساسه الأموال من مشغّليه؟؟.

٤ - أم أنك شهيد معركة كما أعلنوك لحظة موتك... رغم أننا يا ولدي لا نؤمن بالاقتتال بين أبناء الوطن... فعدونا الذي يجب أن نقاتله، ولا ضير إن استشهدنا في قتاله هو العدو الصهيوني وحده لأنه يحتل أرضنا ومقدساتنا، ولا أحد سواه...

٥ - أم أنه ذلك الخفَّاش اللَّعين الذي مزَّق أكاليلك دائماً وفي كل مرَّة كانت توضع على ضريحك؟؟.

٦ - أم أنَّه قدرك... ونحن يا ولدي نؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشرِّه...

كانت تحدِّث ابنها، فلا يجيبها، تبكي، وتمسح دموعها في كل مرة، وتسأل وتنتظر الجواب... ولكن مهما كان الجواب، فالحقيقة الثابتة واحدة وهي أن محموداً قد قضى في غير موقعه، ليبقى صورة معلَّقة على جدران منزله، محفورة في قلب أمه، وفي ذاكرة من يعرفه، فجراً لم يكتمل، وعبرة وجرحاً نازفاً إلى الأبد....

د. مصطفى عبد الفتاح

مؤلفات الكاتب

١ - التوأم الأول، شعر.

٢ - التوأم الثاني، شعر.

٣ - التوأم الثالث، شعر

٤ - قانا وأخواتها، شعر.

٥ - السيِّد، تحليل سياسي.

٦ - شذرات، شعر.

٧ - رأي ورؤية في العمل السياسي، تحليل سياسي.

٨ - إلى الذين أحبهم، شعر.

٩ - الضحيَّة الصغيرة، رواية.

١٠ - جرح من الذاكرة، رواية.

إنَّ كلَّ عملٍ ثوريٍّ لا ينتج الأمل بالحياة الكريمة، المزدهـرة، المليئـة بالحبِّ والسـلام، هو عمل غير ثوريٍّ....

وإنَّ مـا نـراه مـن موت عبثـيٍّ في كلِّ مـكان في البلـدان العربيـة باسـم الثَّـورة، هو بـريءٌ من صفـات الثَّـورة، بـل هو تخريـب وتدميـر وقتل ممنهج...

د. مصطفى عبد الفتاح

الدكتور مصطفى عبدالفتاح، مواليد عام ١٩٥٧. حيزوق - عكار.

- **تلقَّى علومه في مدرسة القرية وثانوية حلبا الرسمية، وتخرّج طبيباً عامّاً من جامعة بخارست - رومانيا.**
- **عضو نقابة الأطباء، وعضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.**




ISBN 978-614-432-423-3
9 786144 324233